الجماليات الفنية في شعر محمد إقبال
«حديث الروح أنموذجاً»

الأستاذ الدكتورة/ عزيزة الصيفي(*)

مقدمة:

إن الإسلام على مر السنين والأزمان سخر الله له باستمرار من يقدمه للناس ويعرف العامة به، من هؤلاء الذين لم يسعفهم الحظ لمعرفة، ما هو الإسلام ؟ ولم يسو ثالث الأديان وآخرها على الإطلاق ومكملها، كما سخر الله سبحانه وتعالى أقلاماً مؤمنة، وعقولاً مفكرة، تدافع عن هذا الدين الحنيف وإن كان غنياً عن الدفاع بدعم من الله تعالى، ومن هؤلاء الذين تصدوا للإرشاد إلى دين الحق، والمجاهرة بضرورة اتحاد المسلمين سواء كانوا عرباً أو غير عرب اتحادهم تحت لواء الإسلام، لرفعتهم ووصولهم إلى العلا في عالم يموج بالمفاسد والإجرام في حق البشر، عالم لا يعرف معنى الحب في الله والتسامح ذلك هو الشاعر الفيلسوف الزاهد المتصوف : محمد إقبال، الباكستاني الحر الأبي الذي يرفض الضيم لأبناء عقيدته فيخاطبهم قائلاً ناصحاً : «إنكم تجتازون أدق مرحلة، وتقومون بأصعب دور في حياتكم السياسية، فعليكم أن تحتفظوا بالارتباط الشامل، والإتحاد القويم، في العزائم والجهود، و في الوسائل والغايات، إنني لا أستطيع أن أخ في عنكم شعوري بأنكم - في سبيل تدارك هذه الحال الخطرة - لابد أن تناضلوا كفاحاً مريرة، ولا سبيل إلى محاولة أخيرة لكسب سياسي، إلا حيث تكون العزائم عزماً واحداً، والقلوب لمتباعدة قلباً واحداً وأن تتركز مشاعركم في مطلب لا تختلفون عليه إنكم تستطيعون ذلك، وبقوة. إن شاء الله - يوم تتحررون من القيود النفسية، وحين تضعون أعمالكم الفردية والاجتماعية في ميزان ما تنشدونه من الأهداف العالية والمثل الرفيعة»(١).

وما أشبه اليوم بالبارحة، نفس المشكلات التي يعانى منها المسلمون مازالت قائمة رغم أن الله سبحانه وتعالى سخر لهذه الأمة علماء أجلاء ومصلحين أرادوا لها الرفعة والسمو، لكن هيهات تكون الوحدة وقد تفرقت الأهواء، وانغمس الجميع في تحقيق مآربهم الشخصية فلا حققوها ولا بذلوا جهداً في إعادة أمجاد المسلمين، فقد كان هذا الشاعر المسلم المؤمن الحق يرى أن أي شعب

(*) أستاذ البلاغة والنقد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية - بنات القاهرة

(١) من خطبة إقبال فى الحفل السنوى للرابطة الإسلامية بمدينة (الله أباد) — ١٩٣٠ .بتصرف) .

يرنو إلى التقدم والحضارة لا بد أن يكون حراً أبياً، يحرص على ا تئام الروابط والأواصر بين أفراده، ويرى أن العرب والمسلمين تربطهم أواصر قلما توجد في أي شع ب حر(٢).

وشعر محمد إقبال رغم أنه مترجم إلى العربية، فقد تجد فيه م بللبك أيها القارئ العزيز، من قدرة على التعبير وتوصيل الفكرة، شعره تراه ممزوجاً بشخصيته وفكر. الذي تكوَّن في تربيته الدينية أولاً واتصاله بالحضارتين العربية والغربية ثانياً وكثرة اطلاعه في كتب التراث العربي ثالثاً والفلسفة على وجه الخصوص.

إن هذه الدراسة ما هي إلا عرض موجز لبعض شعره باا حليل الأدبي بعيداً عن المصطلح العلمي ليتسنى للقارئ العادي قراءة الشرح وفهمه، دون الدخو ، في تحليل أدبي بلاغي متخصص، وقد كان عشقي لفكر هذا الفيلسوف يجعل القلم يجرى في يدي، جريان الماء في النهر، وأنا أكتب عنه، تتزاحم الأفكار وتتلاقى ولا أعلم كيف أنتهي ورغبتي تا ح بالاستمرار في الكتابة عن هذا الشاعر المسلم القدير صاحب العقل المستنير والقلب المفتوح أ ام كل فكر يناقضه، إن من يتناول إقبال بالدراسة يجد نفسه تسبح في ملكوت من الحب الإلهي غي المحدود، لذلك يقول الشيخ أبو الحسن الندوى، وهو أول من عرف العالم الإسلامي به: «لا أعرف شخصية، ولا مدرسة فكرية، في العصر الحديث، تناولها الكتاب والمؤلفون والباحثون، مثلما تناول إ هذا الشاعر العظيم»(٣).

ولا ننسى في هذا المقام أن نذكر أن إقبال لم يزر بلاد العرب سوى مصر وفلسطين، وآلمه كثيراً ما حدث للفلسطينيين، وكانت أول زيارة له عام ١٩٠٥، إذ توقفت الباخرة التي كانت تقله إلى بلاد الإنجليز في بورسعيد، خرج من الباخرة متنزهاً فزار بعض المساجد والمدارس، وترك رسالة وجهها إلى الملك فؤاد حاكم مصر آنذاك يقول فيها : «بسم الله الرحمن لرحيم، من إقبال إلى فاروق مصر ... يا فاروق مصر، إنك لن تكون كالفاروق عمر، حتى تحمل در عمر أو السلام»(٤).

ويذكر المؤرخون أنه لعل لقب (الفاروق) الذي أطلق على لملك فؤاد تيمناً بالفاروق عمر بن الخطاب، كما جاء في رسالة إقبال، ولم يكن إقبال شاعراً فقط بل أديباً، ولعل ما كتبه باللغة الأردية والفارسية قد اجتهد المترجمون في نقله إلى العربية، فنراه يجمل فكر العالم الإسلامي الفذ، يحمل أيضاً

(٢) نقلاً عن إقبال والعرب – سمير عبد الحميد إبراهيم – م. دار السلام – الريا ض – ١٤١٣ هـ .
(٣) مقال فى مهرجان إقبال المئوى الذى عقد فى مدينة لاهور – لأبى الحسن الند ى .
(٤) مملكة البيان، للشيخ عائض بن عبد الله القرنى – دار إبن حزم الرياض – ط ١ – ١٤٢٢ هـ .

عاطفة المسلم الغيور على دينه، شعره وأدبه يحوى ثقافة العرب وعلمهم، يتمثل فكرهم فهو محب للعرب وللغة العربية لأنها اللغة التي نطق بها لسان محمد ﷺ وكتب بها القرآن الكريم.

وبعد فهذه دراسة متواضعة أهديها إلى روح هذا العالم الجليل الذي ألح دائماً على نصرة دين الإسلام العظيم .....

أ.د/ عزيزة الصيفي

حياتـه:

هو إقبال إبن الشيخ نور محمد، كان أبوه يكنى بالشيخ تتهواى، باكستاني الأصل، ولد عام ١٨٧٣م في «سيالكوت» بالبنجاب، من أسرة برهمية الأصل، اعتنقت الإسلام، قرأ القرآن كل يوم لمدة ثلاث سنوات وكان أبوه يوجهه إلى فهم القرآن والتمعن في معانيه، وكان يقول له قولته الشهيرة: «يا ولدى أردت أن أفت نظرك أن تقرأ القرآن وكأنه نزل عليك في لحظته، أن تفهمه حقاً وتعيشه»، إذاً لقد نشأ إقبال نشأة دينية إسلامية، يتمعن في أساليب القرآن ومعانيه، وقد لخص فلسفته في الحياة في هذه العبارة:

«الذات الفردية تتجزأ، وغاية الفرد البحث عن الذات المطلقة (الأنا) وهى تترقى، ولبلوغ الكمال عليها بالجهاد».

وإقبال الشاعر عُرف بشعره الذي أخذ المسحة الفلسفية، التي امتزجت بمنهله الديني التصوفي، ومعرفته الغربية معاً.

هكذا نهل إقبال ثقافته من ثلاثة مصادر:

١- القارة الهندية وتأثره بها.
٢- الثقافة الإسلامية، والعالم الإسلامي.
٣- الحضارة الغربية بما أنتجته من ثورة صناعية وحضارية كبيرة.

فقد سافر إقبال إلى أوروبا ليحصل على درجة الدكتوراه من جامعة ميونيخ بألمانيا، مما أتاح له الفرصة أن يتأثر بالفلسفة الألمانية.

كان لإقبال رؤية استمدها من روافد ثقافته السابقة، لم ينبهر بالحضارة الغربية ولم يقنع بها وبفلسفتها وكفى، وإنما دفعه اختلاطه بالغرب إلى الرجوع لفلسفة الشرق المتمثلة في اجتهادات الأشاعرة خاصة مثل فخر الدين الرازى، وابن خلدون والطوسي.

حاول إقبال أن يربط بين الدين والعلم، وأن يطوع العلم للدين ناظراً إلى حضارة الغرب التي طغت على الدين وأحدثت تناقضاً بينهما حيث وجد أنه لا تناقض بين الدين والعلم، وجد آيات القرآن تحث على العلم والمعرفة والنظر والتأمل والتدبر.

هذا هو إقبال عاش حياته محامياً وحامياً للإسلام حتى مرض، وفاضت روحه إلى بارئها عام ١٣٥٧هـ عن عمر يناهز ٨٦ سنة عطلت فيه المصالح الحكومية وأغلقت المتاجر حزناً على فقد هذا العلامة الكبير.

ومن أشهر دواوين إقبال: «أسرار إثبات الذات - رموز نفي الذات - رسالة المشرق - ضرب الكليم».

ومن أشهر كتبه: «تجديد الفكر الديني في الإسلام - تطور الفكر الفلسفي في إيران».

شعر محمد إقبال:

كما سبق وأشرنا أن إقبال كان يحب اللغة العربية، درسها وكان يقوم بتدريسها، ولكنه لم يكن يجيدها، وكان يتمنى أن يجيدها لينظم الشعر بها يقول عنه د. عائض القرني: هو يحب العرب كثيراً ويقول: «يا ليتني أجيد اللغة العربية مائة في المائة، ولو أجادها مائة في المائة، لأبكانا كما أبكى الهنود، ولأبدع لنا في أدبنا وفي ثرواتنا، ولجعلنا نعيش أدباً رائداً جميلاً، ولكن لا زالتا والحمد لله نتمتع بمقطوعاته الجميلة الإيمانية، ونسأل الله أن يغفر له»(٥).

يقول في قصيدته واصفاً حاله:

أنا أعجمي الدَّية، لكن خمرتي ... صنعُ الحجازِ وكرمها الفينان

إن كان لي نغمُ الهنودِ ولحنهم ... لكن ذاك الصوت من عدنان

والشكر لكل من قام بترجمة شعر إقبال فقد صاغه على عمود الشعر العربي من المحافظة على

(٥) مملكة البيان.

الوزن والقافية ـ غالباً ـ فإذا كان للفظ المترجم أهميته القصوى في نقل المعاني التي يطرحها إقبال في شعره، فإن ذلك مرجعه أمانة المترجم وحسنها، فقد كنت عندما أطالع الشعر الفارسي ألحظ أنه يهتم بفنون البلاغة العربية وأن القصيدة تسير على نفس النسق العربي، من قافية موحدة ووزن موحد وصور بديعية خلابة يسهل نقل معانيها للعربية لأنها قريبة جداً في معناها من التعابير العربية، بعكس ما يجده المترجمون للشعر الغربي فإن لهم أساليبهم ومعانيهم التي ربما لا تنسجم مع الأداء العربي ومعاني العرب، فمن روائع شعره التي تقترب في معانيها لمعاني الشعر العربي قوله:

من ذا الذي رفعَ السيوفَ ليرفَع ... اسمكَ فوق هامات النجوم منارا

كنا جبالاً في الجبالِ وربما سِرْنَا ... على موجِ البحار بحارا

كذلك يقول:

يا ليت قومي يسمعونَ شكايةً ... هي في ضميري صرخة الوجدان

اسمِعْهُموا يا رب ما ألهمتني ... وأعدْ إليهم يقظةَ الإيمان

وقال في مدح نجد وهضابها:

هضباتُ نجدٍ في مغانيها المَهَا ... ومحاور الغزلانِ ملءُ تلالها

والمجد مشتاق وأمة أحمد ... يتهيأ التاريخ لاستقبالها

وعند زيارته لقرطبة عاصمة الأندلس قديماً أيام حكم المسلمين، التي هي الآن (أسبانيا)، يتأمل باكياً على أطلال الدولة الإسلامية هناك ومساجدها فيقول:

وجلجلةُ الآذانِ بكل حي ... ولكن أين صوتُ من بلالِ

منائِركم علت في كل ساحٍ ... ومسجِدكُم من العباد خالِ

وله قصيدة رائعة في (فاطمة الزهراء) منها هذه الأبيات التي يقول فيها:

هي بنت من؟هي زوج من؟هي أم من؟ ... من ذا يساوى في الأنام علاها

أما أبوها فهو أشرف مرسل ... جبريل بالتوحيد قد رباها

وعليٌّ زوج لا تسل عنه سوى ... سيفاً غدا بيمينه تياها

ومن أشهر قصائده التي ترجمت إلى العربية قصيدة حديث الروح .

كتب قصيدته الشكوى عام ١٩٠٩، وجواب الشكوى عام ١٩١٣ .

يحاول محمد إقبال بث شكواه وشجونه حول الدور الحضاري للمسلمين في التاريخ، ويتألم لحال المسلمين في العالم، هؤلاء المسلمون الذين أقام أسلافهم أعظم حضارة في التاريخ، يشكو حالهم وقد تدهور، ودورهم وقد تخلف عن الركب الحضاري، يحول بفكره مواجهة المشكلات الحضارية التي يواجهونها، يتوجه إلى الله شاكياً ما حلَّ بالمسلمين ثم يأتي قصيدته جواب الشكوى، وهي جواب من الله مجازاً للمسلمين على شكواه .

القصيدة الأولى تضم ١٢٠ بيتاً، والثانية تضم ١٤٠ بيتاً ترجمها : محمد حسن الأعمى إلى العربية نثراً، ضمن قصائد أخرى، وأعاد صياغتها شعراً الشاعر المصري الصاوي شعلان .

وقد ذاع صيت هذه القصيدة بعد أن صاغ معانيها الصاوي شعلاً وزاد من شهرتها أن غنتها أم كلثوم تحت عنوان (حديث الروح)، والقصيدة معانيها غاية في الروعة والجمال، بث من خلالها رؤيته ووجهة نظره الدينية ورؤيته الفلسفية، ووجهة التصوفية .

وغناء أم كلثوم للقصيدتين تحت هذا العنوان المختار بدقة والمعبر عما في القصيدتين من معانٍ، جاء تكريماً لإقبال في الاحتفال الذي أقيم في بلاده بمناسبة حلول ذكراه عام ١٩٦٧ .

ويمكن القول أن محمد إقبال في هاتين القصيدتين يبحث قضايا فكرية وأدبية وفنية، ويمكننا القول بأن منهجه الفكري مبنى على الانفتاح على جميع الحضارات وأنه لا تحده حدود، لم يكن مثل كثير من أقران عصره منغلقاً جامداً، بل منفتحاً متجاوباً مع الآخر، لذلك نراه يضع فلسفة أستمدها من عقيدته الإسلام التي تدعو إلى الاعتدال وعدم التطرف، كما قال الله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ بعيداً عن التشدد الذي ساد الأمة، ففكره منفتح على العالم كله .

قصيدة إقبال الخالدة «حديث الروح»:

حديثُ الروحِ للأرواحِ يسرى	وتُدرِكُهُ القلوبُ بلا عناء
هتفت به فطارَ بلا جناحٍ	وشقَّ انينُهُ صدرُ الفضاءِ
ومعدِنُهُ ترابي ولكن جرت	في لفظِهِ لغةُ السماء
لقد فاضتْ دموعُ العشقِ	منى حديثٌ كانَ علوي البناء

فحلق في رُبا الأفلاكِ حتى ... أَهاجَ العالمَ الأعلى بكائي
تحاورت النجومُ وكل صوتٍ ... بقربِ العرشِ موصولُ الدعاء
وجاوبت المجرةُ علَّ طيفاً ... سرى بين الكواكبِ في خفاء
وقال البدرُ هذا قلبُ شاكٍ ... يواصلُ شجوَهُ عند المساء
ولم يعرف سوى رضوان صوتي ... وما احراهُ عندي بالوفاء
شكواي أم نجواي في هذا الدُّجى ... ونجومُ ليلى حُسَّدي أم عودي
أمسيتُ في الماضي أعيشُ كأنما ... قطعَ الزمانُ طريقَ أمسى عن غدي
والطيرُ صادحةٌ على أفنانِهَا ... تبكي الربي بأنينهَا المتجدد
قد طالَ تسهيدى وطالَ نشيدُها ... ومدامعي كالطلِّ في الغصنِ الندى
فإلى متى صمتي كأني زهرةٌ ... خرساءَ لم تُرزق براعة منشد
قيثارتي مُلئت بأنات الجوى ... لا بد للمكبوتِ من فيضان
صعدت إلى شفتيّ خواطرُ مهجتي ... لتبينَ عنها منطقي ولساني
أنا ما تعديتُ القناعةَ والرضا ... لكنما هي قصةُ الأشجان
يشكو لكَ اللّهم قلبٌ لم ... يعشْ الا لحمدِ عُلاك في الأكوان
من قامَ يهتفُ باسم ذاتِكَ قبلنا ... من كان يدعو الواحدَ القهارا
عبدوا الكواكبَ والنجومَ جهالةً ... لم يبلغوا من هديها أنوارا
هل أعلنَ التوحيدُ داعٍ قبلنا ... وهدى القلوبَ إليك والأنظارا
ندعوا جهاراً لا إله سوى الذي ... صنع الوجودَ وقدرَ الأقدارا
إذا الإيمانُ ضاع فلا أمان ... ولا دنيا لمن لم يُحي دينا
ومن رضي الحياة بغير دين ... فقد جعل الفناءَ له قرينا
وللتوحيد للهممِ اتحادُ ... ولن تبنو العلا متفرقينا
الم يبعث لامتكم نبي ... يوحدكم على نهج الوئام
ومصحفُكُمْ وقبلتُكمْ جميعا ... مناراً للإخوة والسلام
وفوقَ الكل رحمانٌ رحيم ... إلهٌ واحدٌ.. ربُ الأنام

من يقرأ القصيدة ويتمعن في معانيها، يجد نفسه أمام شاعر صوفي من أهل الصوفية الحقة، الذين هاموا في حب الله وحب خلقه، الذين رضوا بالحياة باعتبارها دار امتحان واختبار، يتضح من

معاني القصيدة تأثره الشديد بتربية والده الصوفية، ومنهجه الصحيح الذي سار على نهجه، ولما لا وقد كان يقرأ القرآن كل يوم صباحاً، ولمدة ثلاث سنوات متعاقبة، وهو صغير، يمر عليه والده ويسأله ما تقرأ، يقول : أقرأ القرآن، ويستمر سؤال والده كل صباح، فسأله لما تسألني كل صباح، قال له : يا ولدى، أردت أن ألفت نظرك أن تقرأ القرآن، وكأنه أُنزل عليك في لحظته، أن تفهمه حقاً وتعيشه، إنها فلسفة العالم الذي يرى أن قراءة القرآن في كل مرة، قراءة متفحصة، تجعل الإيمان يتجدد والعقل يحظى بأمور لم يكن يدركها في القراءات السابقة .

هكذا كانت حياة إقبال في مقتبل حياته، حياة يجددها القرآن، نفس تهتدي بهدى الله .

علم محمد إقبال أن الذات الفردية تتجزأ، وغاية الفرد البحث عن الذات المطلقة (الأنا) وهى تترقى على مذهب الصوفية، في محاولة لبلوغ الكمال، ولكي يبلغ المرء الكمال عليه بمجابهة النفس، لاحظ كيف كون إقبال فلسفته الخاصة التي امتزجت بمنهله الديني الصوفي وإطلاعه على حضارة الغرب وفلسفتهم معاً.

إن قراءة إقبال للقرآن وإعادة قراءته، ووصوله إلى محتواه العرفاني، أهداه إلى رؤية فلسفية عن الكون والخلق والحياة، هو لم يكتفي بالحضارات الغربية وفلسفتها بل أخذ ينهل من معين اجتهادات الأشاعرة مثل فخر الدين الرازى وابن خلدون وحتى الطوسي. وخرج من ذلك بتوليفة يحقق بها هدفه من الجمع بين الدين والعلم دون أن يتضادا، محاولاً إزالة التناقض بينهما، لأنه رأى أن الحضارة الغربية تقوم على هذا التناقض بين الدين والعلم .. يرون أن الدين يتعارض مع العلم، في حين وجد أنه في الحضارة الإسلامية لا تعارض مطلقاً بين الدين والعلم، فإن القرآن في كثير من آياته يدعو إلى العلم والمعرفة والتدبر والتعقل والتفكر، ويك في أن أول آية نزلت على الرسول ﷺ «إقرأ».

إن فلسفة إقبال الدينية بنيت على أساس التقريب بين الدين والعلم، محاولاً أن يضع معرفته الدينية بأبعادها الدنيوية والروحية المتعددة في صورة علمية قابلة للتجديد والدينامية التي يفرضها عليه الواقع في العصر الحاضر، استشهد في ذلك بفلاسفة الغرب وترى ذلك منطبعاً على شعره .

إن شعر إقبال واحة خصبة لمعارفه الفلسفية في الحضارتين الشرقية والغربية بالإضافة إلى تصوفه وهيامه في ملكوت الله، في حالة وجدانية وشوق المحب، إن شعره ترجمة لخلاصة فكره، التي لخصها في قوله: «إن الإنسان الذي يعرف نفسه جيداً، يخلق المنفعة من الضرر».

أضواء على القصيدة :

وحديث الروح هي قصيدة ضمن أشعاره التي نعلم أنها مترجمة إلى العربية كما ترجمت إلى الاسبانية والصينية واليابانية والإنجليزية وغيرها من اللغات، تلك الأشعار التي نظمها باللغة الأردية ،وهى لغة لم تكن مشهورة ومع ذلك فقد اعتبر النقاد شعر إقبال من بين أعظم الأشعار في العصر الحديث.

يحاول إقبال بث شكواه وشجونه حول الدور الحضاري للمسلمين في التاريخ، ويتألم لحال المسلمين في العالم، هؤلاء المسلمون الذين أقام أسلافهم أعظم حضارة في التاريخ، يشكو حالهم وقد تدهور، ودورهم وقد تخلف عن الركب الحضاري، يحاول بفكر ، مواجهة المشكلات الحضارية التي يواجهونها، يتوجه إلى الله شاكياً، ما آل إليه حال المسلمين وما - ل بهم من نكبات وفقر وجهل وضعف، حتى بلغ بهم الأمر أن يتدخل الغرب في شئونهم ويحتلون بلادهم، ثم نظم قصيدته الثانية التي تأتى جواباً للشكوى، وحلاً لهذه الحالة المتردية وهى جواب من الله سبحانه وتعالى على سبيل المجاز للمسلمين، فالرجوع إلى الدين الحق والتمسك به والسير على هداه هو طريق النجاة .

والقصيدة معانيها غاية في الروعة والجمال، بث من خلالها وجهة نظره الدينية ولواعج نفسه لما وصل إليه أصحاب هذا الدين كما يلحظ المتلقي رؤية إقبال الفلسفية والتصوفية، فمن الملاحظ أن التصوف والفلسفة خدما إقبال في نظرته الدينية وفكره العقدي.

حاول إقبال من خلال قصيدته بحث قضايا فكرية وأدبية وفنية، كما نلحظ أن فكره فكر المنفتح على العالم كله بحضاراته وديانات المختلفة، يأخذ منها ويستفيد، لذلك يجده القارئ مفكراً لا تحده حدود ولا توقفه قضايا متناقضة أو اتجاهات معارضة، روحه رياضية تتقبل الرأي والرأي المعاكس لا يجد في نفسه غضاضة أن يناقش قضايا متناقضة، وآراء شاذة يدفعها بالحجة والبرهان من القرآن الكريم، فلم يكن مثل كثير من أقرانه منغلق الفكر جامداً، كما نرى بعض مدعى الدفاع عن الإسلام الآن من جماعات لا هم لها سوى الاستحواذ على العقول والسلطة معاً، هؤلاء الذين يسمون أنفسهم إسلاميين، والإسلام منهم براء، يواجهون المسلمين بالإرهاب والضغط النفسي والقهر الفكري، يكرهون الناس للانضمام إليهم، يكفرون الآخر حتى وإن كان مسلماً شهد أن لا إله إلا الله .

أما إقبال فقد كان مسالماً يدعو بالحسنى، منفتحاً على العالم متجاوباً مع الآخر، لذلك نراه وقد استفاد من نزعته الفلسفية والتصوفية لخدمة الدين (عقيدة الإسلام)

وقد استوقفني شعر إقبال بالفارسية كثيراً كنت أحاول ترجمته، فبالرغم من عدم إتقاني للغة الفارسية، حيث أنني درستها في مرحلة التعليم العالي بجامعة الأزهر ولكنها دراسة لم تمكنني كما قلت من إتقان النطق بها، ومعرفتها حق المعرفة، ومع ذلك فإنه من خلال بعض النصوص التي درسناها باللغة الفارسية أحببت الشعر الفارسي، وقد هممت أن أتخصص في دراسة هذه اللغة، لولا حبي الشديد للبلاغة العربية ورغبتي الملحة في تحليل النصوص بالعربية، وكان من بين النصوص التي درستها في مرحلة الليسانس جزء من قصيدة (الشكوى) التي ضُمت فيما بعد لقصيدة جواب الشكوى وكون منهما الشاعر القدير الصاوي قصيدته المترجمة (حديث الروح) التي نحن بصدد البحث عن جماليات تلك القصيدة، ومحاولة الغوص في أرجائها والسباحة مع شاعرها للحصول على رؤية واضحة لما تضمنته من أفكار وما حوته من أساليب فنية أبدع المترجم في صياغتها لينقل لنا فكر هذا الشاعر القدير وتعبيراته الرائعة.

يبدأ الشاعر بترجمة الشكوى فيقول:

حديث الروح للأرواح يسرى　　وتدركه القلوب بلا عناء

هتفت به فطار بلا جناح　　وشق أنينه صدر الفضاء

هكذا بدأ قصيدته بمطلع ينم عن قلب يهفو إلى الجمال الإلهي الخالد، إنها الروح التي قال عنها الله سبحانه وتعالى ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[الإسراء:٨٥]، إن الروح من أمر الله ومناجاة الروح لبارئها من الخفايا والأسرار، وروح الله مبثوثة من خلقه، تتعلق الأرواح بذكر الله، والمخلوق يدرك وجودية الله فيما حوله بلا عناء، فلا حاجة لبراهين ودلائل على وجوده .. إنه الروح الخالد الباقية، وكل الخلق فانٍ، وتقديم (حديث الروح) على الفعل يسرى، لتعظيم شأن المقدم وأنه حديث دائم مستمر أبد الدهر، تتجدد فيه الأرواح .

ولأن حديث الروح يسرى في الأرواح وتدركه قلوب المؤمنين المتأملين المتفكرين، في خلق الله بلا عناء، فقد هفت الأرواح بهذا الحديث (السر) الذي يسرى فيها، وقوله (يطير بلا جناح) يعنى التغلغل في النفوس لا حاجز ولا سد يمنع وصول الإيمان إلى القلوب المؤمنة، إن الإيمان الذي صدع النفوس بقوة فصوره بما يشق صدر الفضاء، و(الأنين) هنا يعنى التوسل والخشوع والتذلل على عتبات الله .

ومعدنه ترابى ولكن جرت　　في لفظه لغة السناء

هذا المخلوق (الإنسان) الذي خلق من تراب (طين)، فقد حول الله بقدرته الطين إلى كائن حي، ف في قوله (جرت في لفظه لغة السماء) أى قدرة الله جعلته كائناً متحركاً ذا عقل وقلب يفكر ويتأمل، إنها النظرة الصوفية العالية المتناهية الإجلال للخالق عز وجل .

ينتقل الشاعر إلى نفسه محدثاً عن إحساسه بعد هذا الشعور المعبأ بالعشق الإلهى فيقول :

لقد فاضت دموع العشق منى حديثاً كان علوى البناء

و(لقد) فيه معنى القسم، أن فاضت دموع المبتهل ويقصد نفسه بدليل قوله (منى) وهى دموع العشق والوله والتوهان في ملكوته العلى، ثم صور الدموع بأنها حديث النفس الذي وصفه بأنه علوي البناء، أي حديث المؤمن الخاضع الخاشع، حديث بينه وبين ربه ارتقى إلى أعلى المراتب، حديث القناعة والرضا والشكر والإجلال، حديث ومناجاة الرب قد حلق في ربى الأفلاك :

فحلوق في رُبى الأفلاكِ حتى أهاج العالم الأعلى بكائى

مناجاة العاشق لخالقه، تلك المناجاة حديثاً قدسياً خالداً أبد الدهر كل من على الأرض يسبح لله، كل من عليها فان، لذلك وجب الشكر والدعاء، يبتهل الشاعر ويزرف الدمع سخياً، إنه دمع العاشق المحب الزاهد المستغنى بحب الله، إن مناجاته حلقت في الأفلاك وأهاجت العالم الأعلى، أهاجت كل الكائنات في العلا، لأنه بكاء صادق من قلب عذبه الحب وأكتوى بنار الشوق إلى خالقه متلمساً رضاه وحبه .

تحاورت النجوم وكل صوت بقرب العرش موصول الدعاء
وجاوبت المجرةَ علَّ طيفاً سرى بين الكواكب في خفاء
وقال البدر هذا قلب شاكٍ يواصل شجوه عند المساء
ولم يعرف سوى رضوان صوتى وما أحراه عندى بالوفاء

سرى حديث الروح العلى لأرواح النفوس المؤمنة التقية، فأفاضت الدموع، دموع العشق، حتى صار صداها مسموعاً في أرجاء الكون، فأخذت النجوم تحاور بعضها تدعوا وتبتهل إلى خالقها، تتردد الأصوات بالدعاء حول العرش علها تلقى المجيب، فهو الذي قال: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[البقرة:١٨٦]، الأرواح تناجى وتدعو والنجوم تشارك، حتى انطلقت

المجرة كلها تتجاوب مع الدعاء، فتردد، علّ طيفاً يسرى بين الهَ واكب في خفاء يستمع الدعاء فينقله، هكذا يناجي ربه ويجعل الكون كله يتجاوب معه في مناجاة الخالق .

ويلتفت إلى البدر الذي سمع الدعاء، وسمع أنين بكاء العاشق قال: «إن هذا قلب شاكٍ، وهذا الشاكي يواصل شدوه أي شكواه عند المساء وما أروع الدعاء وبث الشكوى لله عند الظلام حيث يكون الناس نيام، هذا البدر قد عرف أنه صوتي، ذلك الذي يترد، في الأرجاء إنه صوت العاشق المبتهل المتوسل ...

هذه الأبيات السابقة ما أروعها وأجملها، خرجت من فم صـ دق وقلب عامر بالحب الإلهي، استعمل الشاعر كل أساليب اللغة من صور بيانية وأفانين أسلوبية لـ عبر عن مشهد مناجاة العبد لربه وتطلعه لسماع شكواه، أشرك جميع الكائنات معه، حتى جعل المجرة كلها تستمع إليه، وتلبى الدعوة بمزيد من الدعاء والابتهال، تنقل الشاعر بين أبيات المقطوعة، بفكر ه العميق، وعقله المدرك لحقيقة الخلق وحقيقة الكون، مع رغبة ملحة أن يجد السميع العليم قد اسـ جاب ولبى نداه، بهذا الاتصال الروحي الراقي، حيث إن تواصل العبد مع ربه أمر ضروري، ومهم أن لا تنقطع هذه الصلة .

يساوى الشاعر بين الشكوى والنجوى فيقول:

شكواي أم نجواي في هذا الدجى ونجوم ليلى حُسدِّي أم عوَّدي

قد يبدو من السؤال أنه متحير من أمر لكن الحقيقة أن السؤا ، للتسوية بين أن يكون حديث شكوى أم نجوى، فهو في كلا الحالتين يتوجه إلى الله، إنها الشكوى يبثها لله وهى نجوى في ذات الوقت، يناجي ربه في هذا الدجى، ثم يرى أن نجوم ليله تحسده عـ ى ذلك التواصل بينه وبين ربه، وهذا التقارب بين العبد وخالقه، إنه الليل موئل كل حيران شاكى. يتوحد مع نفسه، يبتهل يتوجع يرى أنه محظوظ لأن الله يستمع إلى شكواه، فيحدثه حديث الروح .

يسترجع حاله قديماً فيقول:

أمسيت في الماضي أعيش كأنما قطع الزمان طـ يق أمسى عن غدي

يريد عشت حياتي بالأمس، واليوم أشعر أن الزمان قد فعل أفاء له فعزلني، وقطعني عن أمسى المجيد، وهنا يلمح الشاعر لتلك الحضارة العظيمة التي أقامها المـ سلمون بالأمس، وكيف أن هذه الحضارة ضعفت حتى صرنا في حال متردية، انفصلنا عن ماضـ ينا العظيم، وتحول الماضي إلى ذكريات، وتقطعت بنا السبل، فأصبح الزمان الذي نعيش فيه ليس زماننا، وانهارت الحضارة

وجمدنا في مكاننا، وصرنا نهباً لكل جبار عتيد، إن الغد أصبح مقطو عاً عن الأمس حتى إن الدنيا حزنت وكذلك الطير :

والطير صادحة على أفنانها تبكى الربى بأنينها المتجدد

وقد طال تسهيدى وطال نشيدها ومدامعى كالطل في الغصن الندى

حتى الطير تبكى وتئن لهذه الحال فأنينها متجدد كل لحظة، يشكو ا شاعر السهاد وقلة النوم لأنه يشعر بالأرق، بسبب ما أصبح عليه العالم الإسلامي من هوان، طال، تسهيده، وطال أنين الطير، ودمعه أصبح كالمطر غزيراً، فيصور مدامعه بالطل أي المطر على غص ن ندى طرى نضر، فيتساءل قائلاً:

فإلى متى صمتى كأنى زهرةٌ خرساء لم ترزق براعة منشد

قيثارتى مُلئت بأنات الجوى لا بد للمكبوت م ن فيضان

إنه المسلم الغيور على دينه الملم بهموم المسلمين، ويتوجع ويتألم بسبب هذا الضعف والهوان الذي أصاب الأمة الإسلامية ـ يتساءل إلى متى أظل صامتاً والحال ،كذا، إلى متى نرضى بالهوان فيصور نفسه بالزهرة الخرساء التي لم ترزق براعة منشد، إنه لا يشبه نفسه بالزهرة في جمالها ولونها ولكنه جعلها خرساء، ويقصد بذلك أن هذا الخرص الذي أصاب الأم ة شيء مهين، فإلى متى سيظل المسلم يئن ويتوجع في صمت، إن قيثارته ملئت بأنات الجوى والألم، ويرى أنه لا بد من وقفة ولا بد من ثورة على التخلف والجهل والانحطاط الذي أصاب المسلمين فصور ذلك بالفيضان الجارف الذي أصاب كل غثٍ ورديء، هكذا يرى أن السكون مهانة ولا بد للمكبوت من انفجار يتمثل في صورة فيضان الحق على الباطل، هكذا نرى كل بيت من أبيات القصيد ة يسلم الآخر حتى نصل إلى الغرض من الشكوى والأنين والجوى، فهو يؤكد أنه من الضروري عدم السكوت وأنه عازم على دحر هذا الصمت والخرس، بعد أن طال السهاد وتلك الدموع التي تذ رف، فيقول :

صعدت إلى شفتي خواطر مهجتى ليبين عنها منطقى ولسانى

في هذا البيت يؤكد أنه خرج عن صمته وأن ما كان يؤرقه، متمثلاً في خواطر تحتويها مهجته قد آن لها أن تخرج على شفتيه فيوضحها ويعبر عنها بالمنطق الحق على لسان ، وقوله (صعدت إلى شفتى) يشعر بمدى الصعوبة التي يلاقيها حين يحاول أن يستجمع منطقه، ليط ق خواطره على لسانه .

وينفي تعديه حدود التأدب في الشكوى، وأنه راضٍ وقانع ولكنه من واجبه ألا يظل صامتاً فيقول :

أنا ما تعديت القناعة والرضا لكنما هي قصة الأشجان

يتكلم عن نفسه مؤكداً أن ما تبثه مهجته وما يقوله لسانه لم يكن اعتراضاً على مشيئة الله، أو نكراناً للنعم، إنه قانع وراض ولكن (قصة الأشجان) هي تعني ما يملأ مهجته من أحزان وأوجاع على مصير هذه الأمة وما آل إليه حالها فيقول :

يشكو لك اللهم قلب لم يعش الا لحمد جلالك في الاكوان

من قام يهتف باسم ذاتك قبلنا من كان يدعو الواحد القهارا

إنها شكوى الغيور على دينه العاشق لخالقه، إنها شكوى قلوب لم تعش إلا لحمدك وشكرك، وطاعتك، ثم يتساءل هل هناك من قام يهتف باسم ذاتك يا الله، قبلنا أى قبل الإسلام، ويقصد في عصر الجاهلية، ثم يقول هل منهم من كان يدعوا الواحد القهار، كما نفعل نحن المسلمين، إن الشاعر في هذا البيت لا يقصد أنه لم يكن هناك دين قبل الإسلام لانه معلوم أن اليهودية والمسيحية، كان هناك من يتعبد بهما، لكن هو يقصد هؤلاء العامة خاصة في بلاد العرب، قليل منهم كان على دين موسى وعيسى، وبقية القوم كانوا كما يقول:

عبدوا الكواكب والنجوم جهالة لم يبلغوا من هديها أنوارا

منذ القدم والناس تحاول البحث عن هادٍ يهديهم للخالق، فاتخذوا الأصنام والكواكب والنجوم، والبقر وغير ذلك آلهة يتعبدون إليها، ففي عهد الرسول ﷺ لم يكن كل الناس موحدين لدين الله، لذلك يقول إقبال :

هل أعلن التوحيد داع قبلنا وهدى القلوب إليك والأنظار

وقد انتقده بعض النقاد بسبب هذا البيت، لأنهم يرون أنه ينكر بهذا البيت دين موسى وعيسى، والحقيقة أن الشاعر لم يقصد ذلك البتة، إنه قصد أن انتشار الإسلام في العالم جاء نتيجة لما يحمله القرآن من إقرار بوحدانية الله ويقصد بـ(قبلنا) أى قبل الإسلام. والصحيح أنه خاتم الرسالات، فهو من شدة تحيزه للإسلام ومن شدة تمسكه بعقيدته يرى أن الإسلام هو الحق والقرآن هو المصدر الأول للتشريع، وقد هدى القلوب والأنظار إليك يا الله وهذا طبيعي لشاعر مسلم زاهد موحد،

وجد أباه مسلماً وأهله يعتنقون الإسلام في حين الناس من حوله منهم من يعبد البقر ومنهم من يعبد الأصنام وغير ذلك، فيقول :

ندعو جهاراً لا إله سوى الذي صنع الوجود وقدر الأقدارا

وقوله (جهاراً) يدل على الجرأة وعدم الخوف فإن المسلمين يدعون جهاراً لا إله إلا الله الذي خلق هذه الوجود وصنع الأقدار، فكل شيء مقدر بقدر الله، فالأبيات الخمسة السابقة لا تعنى أن الشاعر ينكر ما عدا الإسلام من أديان، إنما يرى أن الإسلام هو آخر الأديان وخاتمها، وأن العالم كله، صلاحه باعتناق الإسلام، لأنه دين الحق والهدى لذلك يقول:

إذا الإيمان ضاع فلا أمان ولا دنيا لمن لم يحي دينا

ومن رضي الحياة بغير دين فقد جعل الفناء له قرينا

هذا هو القول الفصل، فإن محمداً ﷺ جاء خاتماً ومكملاً للرسالات السابقة ومن لم يؤمن به فقد ضاع إيمانه حتى وإن كان موحداً بالله، فمن أنكر رسالة الإسلام فلا أمان له في الدنيا، إن إحياء الدين وإعلاء كلمة الله فرض على كل إنسان ولا حجة لأحد يوم القيامة إذا ضاع إيمانه بالرسالات الثلاث، ثم يرى إقبال أن من رضي بحياته وهو لا دين له كالبوذي وغيره، فقد جعل الفناء لها قريناً، ويقصد بـ (الفناء) غضب الله عليه، ويعد نفسه للحساب يوم القيامة لأنه علم ولم يطع ولم يؤمن، فهو لا يقصد الفناء على الحقيقة وإنما هو كمن ضيع آخرته بدنياه وخسر الجنة .

ثم يتوجه إلى عامة المسلمين مخاطباً، يحثهم على الاتحاد والتآخي لبناء العلا ومجد الإسلام فيقول :

وفي التوحيد للهمم اتحاد ولن تبنوا العلا متفرقينا

لنصل في الأبيات التالية إلى المقصد الذي من أجله نظم إقبال قصيدته، يتوجه إلى عامة المسلمين مرشداً وموجهاً، وبدلاً من أن يقول توحدوا قال إن من وحدوا الله واعتنقوا الإسلام يمنحهم ذلك قوة وهمة للاتحاد، ويقصد اتحاد في الرأي والفكر واتحاد في القرار وإتحاد للصمود أمام أعداء الدين، ففي الاتحاد قوة، ثم بين في أن تقوم لهم قائمة بغير الاتحاد، وأنهم لن يبنوا العلا والمجد وهم متفرقين ثم يعود يسألهم مقرراً حقيقة البعث، وأن الله أرسل إليهم من يهديهم ويوحدهم فيقول :

ألم يبعث لأمتكم نبي يوحدكم على نهج الوئام

يقرر أمراً، وينكر عليهم أنهم لم ينتبهوا إلى أن الله بعث محمداً ﷺ هادياً وموحداً لهم وأن الدولة الإسلامية حين كانت أمة متحدة علا شأنها وقام مجدها، يريد أن عيب على أمة التي وحدها رسولها أن تتفرق وتتشرذم، أمة قد اجتمعت على كلمة الحق كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فيقول :

ومصحفكم .. وقبلتكم جميعاً منار للأخوة والسلام

إن الله قد أنزل إليكم كتابه لتلتفوا حوله وتتحدوا على كلمة سواء، وجعل لكم قبلة واحدة، لتكون منارة للأخوة والسلام، فكيف وقد دعاكم الحق للاتحاد والتمسك بكتابه وسنة رسوله ﷺ، كيف بكم تتفرقوا هكذا، إن داعي الحق دعاكم وكان من المفترض أن تلبوا النداء باتحادكم لذلك نراه يختم القصيدة بحسن ختام في قوله :

وفوق الكل رحمن رحيم إله واحد .. رب الأنام

إذاً مهما علا الإنسان وتجبر وسيطر، فإن فوقه قوة إلهية تقدر له المقادير، وأنه مهما عظم شأن الإنسان في الأرض فإن الله باسط رحمته على الناس لأنه هو الرحمن الرحيم، هكذا تنتهي القصيدة وقد عبر الشاعر عن مأساة المسلمين الكامنة في صمتهم وقبول الضيم والهوان، وعدم الاتحاد، رغم أن إلههم واحد ومصحفهم بين أيديهم وقبلتهم واحدة ورسولهم واحد، ومع ذلك يلتمس لهم إقبال العفو والرحمة من خالقهم لأنه هو الرحمن الرحيم .

وتلك هي حال المسلمين حتى الآن، لم يختلف اليوم عن البارحة، فالمسلمون متفرقون شيعاً وفرقاً وأحزاباً، ولا سبيل للعلا والمجد إلا بالاتحاد والله المستعان .

الخاتمة :

حديث الروح جاءت زفرة من زفرات نفس متعلقة بحب الله، نفس صادقة في مشاعرها تجاه دينها، قلب يخاف على دينه غيور على إسلامه، آمل أن يرى الأمة الإسلامية متحدة على رأى، متفقة على مبدأ، تتحدث أمام العالم برأي واحد، متى يشعر المسلم أنه آمن في وطنه، متى يشعر المسلم أن قادته يعلمون شأن دينه، إنها النكبة التي نعيشها الآن و التي ولدت الإرهاب والتكفير والقتل والدمار، كل ينتصر لفكره الشيطاني، حتى أصبحت صورة الإسلام في العالم غير صحيحة، أراد إقبال أن يهدى العاصي، ويوحد المتفرق، وعسانا الآن نفعل مثله .. تلك الرؤية الواضحة التي حاول إقبال أن يعبر عنها شعراً، ونقلها لنا الصاوي مترجمة فأحسن الصياغة وأتقن النظم .. فكانت رسالة الحب الإلهي، الذي يبث من خلاله حال المسلمين .....

المراجـــع :

- إقبال والعرب، سمير عبد الحميد إبراهيم، دار السلام، الرياض، ط ١، ١٤١٣ هـ .
- روائع إقبال للندوى .
- الأمة الإسلامية في شعر إقبال المترجم إلى اللغة العربية، دراسة تحليلية، رسالة جامعية عام ٢٠٠٢ لحافظ محمد أكرم أحمد .
- الفيلسوف الهندى محمد إقبال، لشركان عبد الله، رسالة جامعية ١٩٦٧م.
- مملكة البيان للشيخ عائض القرنى، دار بن حزم، الرياض ط١. ١٤٢٢ هـ .
- من خطبة إقبال في الحفل السنوى للرابطة الإسلامية، بمدينة الله أباد، ١٩٣٠م نقلاً عن كتاب محمد برويز عبد الرحيم ١٩٨٥م.
- موقع رابطة أدباء الشام عبد الوهاب عزام .
- منهج تغيير الإنسان عند محمد إقبال للطاووسى، رسالة جامعية ١٩٩٥م.
- مشكلتنا الوجود والمعرفة في الفكر الإسلامي الحديث، عند كل من محمد عبده ومحمد إقبال، دراسة مقارنة لعطية سلمان عودة، رسالة جامعية.